

## المدائح الدينية و نطاقها في إيران منذ العصر الصفوي الثاني حتى عصر القاجار

سيدحسين مرعشي\*

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة القديس يوسف - بيروت

### الملخص

بدأت بوادر إحياء اللغة العربية في إيران بعد أن اتصل الملوك الصفويون بالمدارس الدينية الشيعية في جبل عامل ودعوا جمماً غفيراً من علمائها للقدوم إلى إيران لدعم المذهب الإمامي وإحيائه فيها. وقد كان لهجرة فقهاء الشيعة من جبل عامل ويُعيد ذلك من البحرين إلى إيران، واهتمامهم بالمدارس الدينية التي أرسوا قواعدها في أصبهان، وفي المدن الإيرانية الأخرى، الدور الأساس في تمهيد وإعداد أرضية صلبة لإحياء هذه اللغة بإيران. وقد تأثرت نتاجات شعراء إيران الشعرية، في تلك الفترة، بمؤثرات كثيرة يمكن تعرفها من خلال دراسة نطاقات هذه القصائد وأنواعها وتحديد الأغراض الموجودة فيها. وفي هذا المقال نتكلم حول نطاقات المدائح الدينية باعتبارها أكثر النطاقات تنوعاً في هذا العصر. وهذه النطاقات، حسب مقدماتها، هي: نطاقات تبدأ بمقدمات نسبية، نطاقات تبدأ بمقدمات غير نسبية، نطاقات تبدأ بالمدح مباشرة. وقد يُطيل الشعراء المقدمات إظهاراً لتمكّنهم الشعري.

الكلمات الدليلة: الصفويون، فقهاء الشيعة، المديح، النطاق، النسب.

---

\*. E-mail:hosein\_marashi@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١١ / ٠٢ / ١٣٩١؛ تاريخ القبول: ١٨ / ٠٥ / ١٣٩١.

## المقدمة

انقطعت إيران والإيرانيون من البيئة العربية ولغتها بُعيد سقوط البويهيين (٣٢٧هـ - ق/٩٣٢م - ٤٤٨هـ - ق/١٠٥٥م) في إيران واستيلاء السلاجقة (٤٢٨هـ - ق/١٠٣٧م - ٥٤٧هـ - ق/ / ١١٥٤م) عليها. واستمرّ هذا الانقطاع حتّى أواسط العصر الصفوي (٩٠٧هـ - ق/١٥٠٢م - ١١٤٨هـ - ق/١٧٣٦م). وبدأت بوادر إحياء اللغة العربية في إيران بعد أن اتّصل الملوك الصفويون بعامة، و الشاه عباس الصفوي (١٠٣٨هـ - ق/١٦٢٩م) بخاصّة، بالمدارس الدينيّة الشيعيّة في جبل عامل ودعوا جمّاً غفيراً من علمائها للقدوم إلى إيران لدعم المذهب الإمامي وتوطيد أساطينه وإرساء أسسه وإحيائه فيها. وكانت هذه الحوزة تُعتبر أكبر مدرسة دينيّة للفكر الشيعي الإمامي في تلك الفترة. وكان لهجرة فقهاء الشيعة من جبل عامل و بُعيد ذلك من البحرين إلى إيران، و اهتمامهم بالمدارس الدينيّة التي أرسوا قواعدها في عاصمة الصفويين أصبهان، وفي المدن الإيرانيّة الأخرى، الدور الأساس في تمهيد و إعداد أرضيّة صلبة، وفي نفس الوقت خصبة لإحياء اللغة العربيّة فيها. وإذا كان هؤلاء الفقهاء هم الرواد الأوائل لهذه اللغة في العصر الصفوي بيران، فقد كان لتلاميذهم الذين نهلوا من معينهم في الحوزات العلميّة الفضل في نشر اللغة العربيّة ورواجها فيها، وذلك في الحقبة التي تلت ذلك العصر أي العصرين الأفسشاري (١١٤٨هـ - ق/ ١٧٦٣م - ١١٦٣هـ - ق/ ١٧٥١م)، والزندي (١١٦٣هـ - ق/ ١٧٥١م - ١٢٠٩هـ - ق/ ١٧٩٤م).

قسّم الباحثون العصر الصفوي إلى ثلاث مراحل كالتالي:

- ١- العصر الصفوي الأوّل : منذ عام ٩٠٧هـ - ق/ ١٥٠٢م حتّى حكومة الشاه عباس الصفوي عام ٩٩٥هـ - ق/ ١٥٨٧م.
- ٢- العصر الصفوي الثاني : أيام حكم الشاه عباس الصفوي بين عامين ٩٩٥هـ - ق/ ١٥٨٧م و ١٠٣٨هـ - ق/ ١٦٢٩م.
- ٣ - العصر الصفوي الثالث : منذ وفاة الشاه عباس الصفوي عام ١٠٣٨هـ - ق/ ١٦٢٩م حتّى سقوط الصفويين عام ١١٤٨هـ - ق/ ١٧٣٦م.

ويمكن اعتبارُ عصر الشاه عباس الصفوي بداية العصر الحديث في إيران، وهو عصر شاع فيه مذهب الشيعة الإماميّة، وغابت فيه اللغة العربيّة عن الأوساط الحكوميّة، وتجلّى فيه الفنّ الإسلامي والإيراني، وعمّت الثقافة الإسلاميّة والإيرانيّة في البلاد. وقد كانت هذه الخصائص ظاهرة بجلاء

في العصرين الأفشاري (١١٤٨هـ - ق/١٧٣٦م - ١١٦٣هـ - ق/١٧٥١م) والزندى (١١٦٣هـ - ق/١٧٥١م - ١٢٠٩هـ - ق/١٧٩٤م) أيضاً حيث يمكن اعتبار هذه الفترة (مائتان وخمسة عشر عاماً)، بدءاً من العصر الصفوي الثاني وانتهاءً بسقوط الزندين عصرًا واحدًا. ولم نتطرق في البحث إلى العصر الصفوي الأول لقلّة الشعراء آنذاك حيث لم يتجاوز عددهم اثنين أو ثلاثة.

وفي العصر المدروس، شهدت إيران نشاطاً شعرياً لم تستوفِ حقّه من الدراسة، وقد لاحظنا -من خلال ما أطلعنا عليه من مصادر- أنّه كان لشعر الولاء للبي (ص) وأهل بيته (ع)، مدحاً ورثاءً، الحظّ الأوفى، في تلك الفترة. وذلك لأسباب هي:

١- رواية نقلت عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) إذ قال: "مَنْ قال فينا [أهل البيت] بيتاً من الشعر أعطاه الله بيتاً في الجنة". (المجلسي، ج ٢٦، ص ٢٣١) وقد أشار بعض شعراء العصر إلى هذا الموضوع في أشعارهم.

٢- كان بعض الملوك الصفويين يرى أنّ من الواجب أن توجه المدائح إلى الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته (ع)، ويرفض أن يمدحه الشعراء كما جاء في سيرة الشاه طهماسب الصفوي (٩٨٤هـ - ق/١٥٧٦م).

٣- كان معظم شعراء العصر فقهاء ومن رجال الدين؛ فمن الطبيعي أن يهتموا بالشعر السديني أكثر من غيره.

وقد كانت للعوامل التراثية والثقافية والمذهبية تأثيرها في الشعر الديني. ويمكن التعرف إلى شيء من هذه المؤثرات من خلال دراسة بني هذه القصائد وأنواعها وتحديد أغراضها. فبناءً على ذلك نرغب، من خلال هذه الدراسة، في الإجابة عن سؤال رئيسي هو:

### ما هي نطاقات المدائح الدينية في إيران الصفوية والزندية والأفشارية؟

وارتأينا أن ندرس نطاقات المدائح الدينية غير سواها، لأنها أكثر تنوعاً من المراثي الدينية والشعر الصوفي.

وللحصول على رؤية واضحة للموضوع نستمدّ من المنهج الموضوعاتي الذي من شأنه تحديد نطاقات القصائد وأغراضها.

ونودّ أن نشير هنا إلى أنّنا استندنا إلى بعض المجموعات المخطوطة غير المرقّمة فلذلك اضطررنا إلى ذكر اسم المجموعة من دون الإشارة إلى الصفحة التي راجعناها.

وقبل الدخول في صلب الموضوع يجب الإشارة إلى أننا لانعني بنطاق القصيدة أغراضها أو مضامينها بل نعني به إطارها العام الذي يتشكل من محاور وأغراض رئيسية، وبعبارة أخرى أن نطاق القصيدة هو العمارة التي يقوم النص الشعري عليها بصفته مجموعة من الأغراض التي تخضع لتخطيط أو ترتيب خاص في صياغتها. وباختصار يمكن توضيح نطاق القصيدة بأنه الإطار الذي يتضمن الأغراض الرئيسية لها، فإن كان النطاق يحتوي على غرض رئيسي واحد فهو نطاق أحادي، وإن كان يحتوي على غرضين أساسيين فيعتبر نطاقاً ثنائياً، وإن كان ذا أغراض رئيسية ثلاثة فيسمى نطاقاً ثلاثياً، فهكذا ...

ونحن نعتمد تفصيل الحديث عن نطاقات المدائح الدينية في العصور الثلاثة الصفوي والأفشاري والزندى ضمن العناوين التالية.

### نطاقات المدائح الدينية

ليس للمدائح الدينية شكل بنائي واحد مطرد بل أن هناك أشكالاً بنائية أو نطاقات متعدّدة نقسمها حسب مقدماتها؛ لأنها هي الميزة الأساسية لكل نطاق أو تركيب، ولأنه يساعدنا في دراسة التطور الذي حصل لنطاقات المدائح الدينية، في هذا العصر. وهذه النطاقات هي: نطاقات تبدأ بمقدمات نسبية، نطاقات تبدأ بمقدمات غير نسبية، نطاقات تبدأ بالمدح مباشرة.

#### أ- نطاقات تبدأ بمقدمات نسبية

لا نعني بالنسب ما نعرفه عموماً بل نقصد به النسب والغزل والرحيل. ولكل هذه المصطلحات معان اصطلاحية تركناها، واستعملنا هذه المفردات بمعنى واحد، لأنها تأتي من ثقافة واحدة، ولا يؤثر اختلاف معانيها في بحثنا هذا. وعلى كل، فإن كثيراً من المدائح الدينية بل أكثرها، في هذا العصر، يبدأ بالنسب. وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على تأثر الشعراء بالشعر العربي القديم. وكان الشعراء العربي، في العصرين الجاهلي والإسلامي، يبدأ قصيدته المدح بالنسب لبعث المدوح على الجزاء والعتاء. وأوضح نصّ في هذا قول ابن قتيبة (٢٧٦هـ - ق/ ٨٨٩م) :

«وسمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصد القصيد أنما ابتداءً فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فيكى وشكا وخاطب الربيع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين ثم وصل ذلك بالنسب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، وفرط الصباية والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأنّ التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، كما قد

جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وألف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً به بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له عقباً بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسري الليل وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وذمامة التأميل، وقرّر عنده ما ناله من المكارّه في السير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضّله على الأشياء". (ابن قتيبة، ١٩٩٦م، ج ١: ٧٤-٧٥)

هذا النص يكشف عن شيء في فهم ابن قتيبة للقصيدة، فهو أن لا مدحية من دون مقدّمة تتألف من الوقوف على الأطلال والغزل ووصف الراحلة، وذلك لشدّ الأسماع والقلوب إليه وبخاصّة سماع المدح وقلبه. هذا الشرط القسريّ يؤكده ابن رشيق (٤٥٦هـ / ق. ١٠٦٤م) حين يعيب الشعراء الذين يبدأون القصيدة بالمدح مباشرة، وهو يقول:

« ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريدته مكافحة، ويتناولها مصادقة، [...]، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بترأ كالخطبة البترأ والقطعاء، وهي التي لا يبدأ فيها بحمد الله - عزّ وجلّ - على عادتهم في الخطب » (ابن رشيق، ١٩٩٦م، ج ١: ٣٧٢).

فقبل أن يؤصّل ابن رشيق هذا الأصل أتى ناقد ثالث وهو ابن الأثير (٦٣٧هـ / ق. ١٢٣٩م) مخفّفاً من حدّة هذا الشرط. فرأى ابن الأثير أن "القاعدة التي يبنى عليها أساسه [المطلع] أنه يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر، فإذا كانت مديحاً صرفاً لا يختصّ بمحادثة من الحوادث فهو مختير بين أن يفتتحها بغزل أو لا". (ابن الأثير، ١٩٩٦م، ج ٢: ٢٣٦) أمّا إذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث كفتح أو عزيمة جيش فإثمه لا ينبغي أن تبدأ بالغزل، لأنّ هذا يدلّ «على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه، ولأنّ الأسماع تكون متطلّعة إلى ما يقال في تلك الحوادث، والابتداء بذكرها بالغزل» (م، ن، ج ٢: ٢٣٦).

وعاب ابن رشيق أن يكون النسيب أطول من المدح. (ابن رشيق، ١٩٩٦م، ج ١: ٣٧٣) وعلى كلّ، استمرّ النقاش حول المقدّمة الغزليّة للمديح وطولها إلى العصور التالية. وأنّ المقدّمة الغزليّة لا تقتصر على المدائح الدينيّة بل تتعدّها إلى المدائح كلّها دينيّة كانت أم سواها. وهذه ظاهرة شائعة متأثرة بالمدح غير الديني، منذ صدر الإسلام، إلّا أنّ بعض الشعراء رأوا أن يكون للمطلع الغزلي للقصيدة المدحية الدينيّة خصوصيّة تميّز هذا النوع من المديح بحيث أن يجعل المستمع متيقّناً بأنّ المديح

منشود في شخصية دينية. وقال ابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ / ق. ١٤٣٣ م) في شرحه للبيعية التي أنشدها في مدح الرسول محمد(ص):

«إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب و يتضاءل ويتشبه، مطرباً بذكر سلع ورامه وسفح العقيق والغذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرء، والتغزل في ثقل الردف ودقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار وما أشبه ذلك، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب» (ابن حجة، ١٩٩١ م، ج ١: ٣٦-٣٧)

ويرى ابن حجة أن مطلع البردة من أحسن البراعات، وهو :

أ من تذكر حيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم

(البوصيري، ١٩٩٥ م، ١٦٥)

فحسب ابن حجة "مزج دمه بدمه عند تذكر حيران بذي سلم من أطف الإشارات إلى أن القصيدة نبوية". (ابن حجة، ج ١، ص ٣٧) ولكننا نتحفظ على هذا الرأي؛ لأنه إذا اتفقنا مع الحموي فهل يمكن اعتبار مطلع قصيدة امرئ القيس المعروفة مطلعاً يتناسب مع القصيدة النبوية؟! يبدو أن في كلام الحموي هذا شيئاً من المبالغة، نعم نحن معه حينما اعتبر الحشمة والأدب في المقدمة الغزلية للمدائح النبوية من شروطها الرئيسية. وهذا ما نراه فعلاً في مقدمات المدائح الدينية الغزلية في العصر الصفوي وبعده.

وفي كثير من هذه القصائد المدحية يمتزج النسب بالشعر الصوفي وهذه ظاهرة طبيعية وشائعة عند شعراء إيران، وذلك لتأثرهم الشديد بالتراث الشعري الصوفي فارسياً كان أو عربياً. والشعر الصوفي الذي نراه في المديح الديني يبدأ بالنسب أو الغزل ولكن لا يمكن الفصل بينه وبين الشعر الصوفي الذي يأتي بعده مباشرة بسبب علاقتهما الوثيقة ببعضها. وهذا ما نجده في أشعار ابن الفارض (٦٣٢ هـ / ق. ١٢٣٥ م) الصوفية كالقصيدة التي تبدأ بالبيت الآتي:

هل نار ليلي بدت ليلاً بذي سلم أم بارقاً لاح في الزوراء فالعلم

(ابن الفارض، ٢٠٠٥ م، ١٨٥)

وإذا ما درسنا القصائد المدحية التي تبدأ بالنسب من حيث الشكل البنائي لرأينا أنها من نوعين : ثلاثي البناء وثنائي البناء.

## ١- نطاق ثلاثي

يوجد نطاقان ثلاثيان للمديح الديني، هما:

### ١-١- النسيب فالمدح فالرثاء

لا شكّ في أنّ مديح المرثي من الموضوعات الرئيسيّة التي يعالجها الشاعر في رثائه، إلّا أنّ بعض الشعراء يُطيلون المديح في مراثيهم إذ يحجّم على القصيدة جوّ المديح. ولعلي بن خلف المشعشي<sup>١</sup> (١٠٨٨هـ. ق/ ١٦٧٧م) قصيدة في رثاء الإمام الحسين بن علي(ع) أنشدها في محرّم عام ١٠٧٩هـ. ق/ ١٦٦٩م في هذا النطاق، ومطلعها:

إن كنت تطمع في وصال الكاعبِ فاردّد لها عصر الشبابِ الذاهبِ

( المشعشي، بلا، ٣٥١ )

ويمكن تقسيم القصيدة كالتالي :

- النسيب : من البيت الأوّل حتّى البيت الثالث والعشرين (٢٣ بيتاً)

- بيت التخلّص، وهو :

فاشمخُ بأنفك عن ركوبك باطلاً واجنحْ لمدح أكارم وأطائب

- مدح أهل البيت : من البيت الخامس والعشرين حتّى البيت الخامس والثلاثين (١١ بيتاً)

- بيتا التخلّص، وهما :

وإذا ذكرت مصابهم بالطّف من أعدائهم هانت عليّ مصابني

فأباتُ مقروحَ الفؤادِ موصلَ الـ أحزان مغسولاً بدمعٍ ساكبٍ

- رثاء الإمام الحسين (ع) : من البيت الثامن والثلاثين حتّى البيت الواحد والأربعين (٤

أبيات)

- الصلّاة على النبي(ص) وأهل بيته(ع) في البيت الثاني والأربعين والأخير من القصيدة

فيلاحظ أنّ عدد أبيات المديح ثلاثة أضعاف أبيات الرثاء تقريباً، ومع ذلك تعتبر هذه القصيدة

مرثية رغم قلّة أبيات الرثاء فيها.

## ١-٢- النسيب فالمدائح فالصلاة والتسليم (والتوسّل والتشفّع)

إنّ قسماً وافراً من المدائح الدينيّة أنشد في هذا النطاق، فمعظم المدائح النبويّة وجزء من مدائح أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) يبدأ بالنسيب ومن ثمّ المديح فالصلاة والتسليم على الممدوح. وفي بعض هذه القصائد يبدأ الشاعر مدحيته بوصف الناقة التي توصله إلى قبر الممدوح، وهو :

خلّها تطو شقّة البيد طياً	تُذمن السير بُكرةً وعشياً <sup>١</sup>
ففسى السير أن يبرّد منها	بمياه العذيب داء دويّا
كلّما غرّدتْ خُداة المطايا	تتهاوى من الغرام هويّا
ذاكرات بأيمن السفح مرعى	مُخصباً قد رعته دهرًا وريّا <sup>٢</sup>
نَحَّ عنها ضرب القطيع فذكراك	رُبى حاجر يحثّ المطيّا <sup>٣</sup>
أنت تبغي بضربك العيس قطع	البيد طياً أو تُرزم الشدقميّا <sup>٤</sup>
هي تبغي رمث اللوى وخزاماه	وتبغي بذلك الجزع حيّا <sup>٥</sup>

(المشعسي، بلا، ٣٦)

إلى أن قال في تخلّص الرحيل :

للمطايا عندي حقوق إذا ما  
بلغتني وقد رأيت الغريّا

(م ن، ٣٧)

ويُعلم من البيت الأخير أنّ القصيدة أنشدت في مدح الإمام عليّ بن أبي طالب (ع). وقلمنا نجد مديحاً يبدأ بالرحلة، وربما يرجع بدء هذه القصيدة بالرحلة وتوصيف الراحلة إلى ثقافة الشاعر العربيّة وهو من خوزستان ومن أشدّ شعرائها عصبيّة بعروبه.

وفي ختام هذه المدائح يصليّ الشاعر على الممدوح ويسلم عليه، وفي كثير من الأحيان يستشفع به وبآله يوم القيامة. والشفاعاة في ختام هذه القصائد كالجاء والعطاء الذي يتمنّاه الشاعر من ممدوحه في المدائح غير الدينيّة.

## ٢- نطاق ثنائي: النسيب فالمدائح

لم نجد بين المدائح الدينيّة التي وجدناها في هذا العصر مدحيّة نبويّة في هذا النطاق. هذا في حين أنّ أكثر القصائد التي أنشدت في مدح الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) وأولاده أنشدت في هذا التركيب الثنائي، فمثلاً لا نرى قصيدة في مدح المهدي المنتظر (عج) إلّا ولها جزآن : النسيب فالمدائح. وعلى



سبيل المثال نشير إلى قصيدة بماءالدين العاملي (١١٣٠هـ.ق/١٦٢١م) في مدح الإمام الثاني- عشر(عج) ابن الإمام العسكري(ع) والتي تبدأ كالتالي :

سرى البرقُ من نجدٍ فجَدَّدَ تذكاري عُهوداً بجزوى والعُدْبِ وذيقارِ

(حجازي، ١٩٩٩م، ٢٨٢)

قبل أن ننهي بحثنا حول المدائح التي لها مقدّمة غزليّة نتناول موضوع طول هذه المقدّمة. مع أنّنا نجد مقدّمات قصيرة كثيرة للمدائح الدينيّة، في هذا العصر، غير أنّه نرى بوضوح نزعة الشاعر في مديحه إلى المقدّمة الغزليّة الطويلة وكأنّه يريد إظهار شاعريّته عن هذا الطريق. وأحياناً نواجه مدائح نسيبها أطول من الغرض الأساس وهو المدح، وعلى سبيل المثال نشير إلى قصيدة الطبيب الأصفهاني<sup>٧</sup> (١١٩١هـ. ق/ ١٧٧٧م) في مدح الإمام المهدي (عج) وهي تبدأ كالتالي:

أيا من يداوي الناس دعني ودائيا علاج مريض المهجر ليس التداويا

دواؤك من داء النوى ليس شافيا وما بي غير المهجر إن كنت داريا

نسيم نواحي زندرود دوائيا وصحة حيران العراق شفائيا

(الزنوزي، بلا، ٢٢٢)

وللقصيدة تسعة وأربعون بيتاً، وهي تقسم إلى قسمين أساسيين: النسيب فالمدح:

- النسيب: من البيت الأول حتّى البيت السابع والثلاثين (٣٧ بيتاً)

- بيت التخلّص: البيت الثامن والثلاثون

- المدح: من البيت التاسع والثلاثين حتّى البيت التاسع والأربعين (١١ بيتاً)

ويشاهد أنّ عدد أبيات المقدّمة النسيبيّة أكثر من ثلاثة أضعاف أبيات المدح.

وهناك من النقاد من يرى عدم جواز إطالة الممدحة، لأنّها تُنسى أولها؛ وقد نقل ابنُ رشيق (٤٥٦هـ. ق/ ١٠٦٤م) عن أحدهم:

"وقد حُكي عن عمارة أنّ جدّه جريراً قال: يا بَنِيّ! إذا مدحتهم فلا تُطيلوا الممدحة فإنّه يُنسى أولها

ولا يحفظ آخرها، وإذا هجوتهم فخالفوا". (ابنُ رشيق، ١٩٩٦م، ج ٢: ٢٠٥)

ورأى ابنُ رشيق نفسه أنّ «من عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيراً والمدح قليلاً» (م ن، ج ١: ٣٧٣).

وقد عاب عدد من الشعراء والنقاد، في العصر الصفوي، بدء المدائح الدينيّة بالنسيب فعملوا في إزالة هذا التقليد.

## ب- نطاقات تبدأ بمقدمات غير نسيبية

وأشير أعلاه أنّ بعضهم اعتبروا بدء المدائح الدينية بالنسيب عيباً ورجحوا أن يبدأ المديح الديني بمقدمات غير نسيبية كمقدمات تتضمن الحكمة والوعظ أو الشكوى. فيقول محمد مؤمن الجزائري (١١٠٢هـ - ق/١٦٩١م) في كتابه زهرة الحياة: "[...] وهو أن يُحلّي المتكلم كلامه بشيء من الحكمة والموعظة الحسنة أو شكاية الزمان وأبنائه أو ترك الصبا وعدم اتباع الهوى وهو أليق بالمديح النبوي(ص) من التغزل ونحوه من التشبيب بذكر القيان والخمور". (الجزائري، زهرة الحياة)

وإذا ما درسنا القصائد المدحية التي لها مقدمات غير نسيبية، من حيث الشكل البنائي، لوجدناها في نطاقين: ثلاثي البناء وثنائي البناء.

### ١- نطاق ثلاثي: الشكوى فالمدح فالصلاة والتسليم (والتوسل والتشفع)

وقد نجد مدائح دينية في هذا النطاق. وظاهرة الشكوى من الدهر وأبنائه منتشرة في إيران الصفوية والأفشارية والزندية، وذلك بسبب أحداث وحروب تشهدها البلاد في تلك الفترة. وللمشعشي(١٠٨٨هـ - ق/١٦٧٧م) والي الحوزة، قصيدة يمدح بها الإمام الحسن بن علي(ع)، وهي تبدأ بالشكوى من الدهر ومصائبه كالتالي:

لو كان بعض الذي ألقى من المحن	ييلى به زمي ما ساءني زمي
ما للزمان كفانا الله صولته	بالخطب دون البرايا قد تعمدي <sup>٨</sup>
إن كنت تجهل نعي لست تعرفه	فاسأل عن الهمم والبلوى فتعرفني
من كان ذا الدهر أبكاه وأضحكه	فما حظيت بيوم منه أضحكي

(المشعشي، بلا، ٣٩-٤٠)

إلى أن قال:

إلى الله أشكو من عداوته	عسى إلهي منها أن يخلصني
بأحمد و علي و البتول و بالحسين	مولاي بعد المجتبي الحسن
غصن النبوة من أصل الرسالة قد	نشا فأكرم بذاك الأصل والغصن

(م ن، ٤٠-٤١)

وتنتهي القصيدة بأحد عشر بيتاً في التوسّل والتشفّع بالممدوح وحده بل يتوسّل بأهل البيت(ع) كافة. وأكثر المدائح الدينية التي أنشئت في هذا النطاق موجودة في ديوان المشعشي نفسه.

## ٢- نطاق ثنائي

وللمديح الديني نطاقان ثنائيان هما كالآتي:

### ١-٢- الوعظ فالمديح

لمحمد مؤمن الجزائري<sup>١</sup> (١١٠٢هـ - ق/ ١٦٩١م) قصيدة في مدح الإمام علي بن أبي طالب(ع) تبدأ بالوعظ وترك النسيب. وقد أوردنا رأيه في هذا الخصوص سابقاً. ومطلع القصيدة:

دع الأوطان يندبها الغريبُ      و حلّ الدمع يسكبه الكتيبُ

(الجزائري، ٥١٣٩٣، ق، ١٨)

وتحوي المقدمة أربعة عشر بيتاً، ثم يأتي بيت التخلّص وهو:

وحسبك في النواتب والبلايا      مغيث مفزع مولى وهوبُ

(م ن، ١٩)

والمديح ستة أبيات كالآتي:

جواد قبل أن يرجى يواسي      غياث قبل أن يدعى يجيبُ  
تكلّمتِ الظبا معه و شمس      و ثعبان و حيتان و ذئبُ  
و ردّت بعدما غربت وغابت      له شمس السماء و لا عجيبُ  
كريم يستحي من مؤمل قد      رجي أن يماتل أو يخيبُ  
أمير المؤمنين أبو تراب      علي المرتضى البرّ الحسيبُ  
عليه تحيّي ما جنّ ليل      و حنّ من النوى دنفُ غريبُ<sup>١</sup>

(م ن، ١٩)

فيلاحظ أنّ مقدّمة القصيدة أطول من الغرض الأساس وهو المديح.

### ٢-٢- الشعر الصوفي فالمديح

ونرى أحياناً مدائح في النبي محمد(ص) وأهل بيته(ع) وهي تبدأ بشعر صوفي بحت. ولمحمد بن علي الحرفوشي العاملي<sup>١١</sup> (١٠٥٩هـ / ق. ١٦٤٩م) قصيدة غديرية تبدأ بمقدمة صوفية أولها:

يا وردةً من فوق بانه سرّ المحبّة من أبانه؟

(السماوي، ٢٠٠١م، ج٢: ٢٧٨)

وفيه إشارة إلى وقعة غدير خمّ إذ قال:

واسأل بختكم كم له الـ مختار من فضل أبانه؟

(م ن، ج٢: ٢٧٩)

وللحرّ العاملي<sup>١٢</sup> (١١٠٤هـ / ق. ١٦٩٣م) قصيدة في مدح أهل البيت (ع) لها مقدّمة صوفية كالتالي:

سقاني جمال الغيد كأس محبّة	فجرّني منها مدامةً مخنة <sup>١٣</sup>
بدور بدور قد أنارت بنورها	تحلتّ و لما أن تحلتّ تجلتّ
فتخجل أغصان النقا إن تمايلت	وتبدي سنا شمس السما إن تبدت
وقفن فلا أدري وقوف مودّع	لنا، أم لقاء، أم معادي و رجعي
تناهى غرامي في هواها و صبوتي	فسيان حالي في اكتهالي و صبوتي <sup>١٤</sup>

(مولوي، ١١٠٤م، ٣٦٩)

وقد ختم الشاعر القصيدة بالبيت التالي:

فهم خيرة الرحمن من سائر الوري وحجته في كلّ إنس و جنّة

(م ن، ٣٨٦)

والجدير بالذكر أنّ الشعراء العلماء الذين أنشدوا مدائحهم الدينية في هذا النطاق ليسوا معروفين كصوفيين بل هم فقهاء بالدرجة الأولى. وأخيراً وصلنا إلى نطاقات المدائح الدينية التي تبدأ بالمدح مباشرة.

### ج- نطاقات تبدأ بالمدح مباشرة

إنّ هناك محاولة لحذف المقدمات المختلفة من المدائح الدينية وبدئها بالمدح بالذات. وهذه القصائد من حيث الشكل البنائي قسماً: ثنائي البناء وأحادي البناء.

## ١- نطاق ثنائي

نرى ثلاث نطاقات ثنائية للمديح الديني تبدأ بالمديح مباشرة، وهي كآآتي :

### ١-١- المديح فالصلاة والتشفّع

أنشد نصرالله الحائري<sup>١٥</sup> (١١٦٨هـ - ق. / ١٧٥٥م) قصيدتين في مدح الإمام علي (ع) تبدأن بالمديح. تنتهي القصيدة الأولى بالصلاة على الممدوح (الحائري، ١٩٥٤م، ١٤) والأخرى بالتشفّع به يوم القيامة والصلاة عليه (م ن، ١٠-١٢).

### ١-٢- المديح فالوصف

وهذا النطاق من إبداعات شاعر المديح الديني في تلك الحقبة. وقد أنشدت مدحية علوية واحدة تبدأ بالمديح ومن ثمّ وصف طويل لقبة مرقد الشريف وجدناها في ديوان الحائري. تبدأ القصيدة بالبيت التالي:

إذا ضامك الدهر يوماً و جارا  
فلذ بحمي أمنع الخلق جارا<sup>١٦</sup>

(م ن، ١٢)

وللقصيدة اثنان وخمسون بيتاً يصف فيه الشاعر قبة الإمام علي (ع) وتذهيبها وما كتب عليها من الآيات والطوق والكفّ والحلال الظاهرات فوق تلك القبة. وقد بنى القبة نادر شاه الأفشاري (١١٦٠هـ - ق. / ١٧٤٧م) عام ١١٥٥هـ - ق. / ١٧٤٢م فأطلها على غرار قبة الصخرة في مدينة القدس.

### ١-٣- المديح فالشعر الصوفي

لم نجد من المدائح الدينية المنشودة في هذا النطاق سوى قصيدة واحدة (اثنا عشر بيتاً) في مدح الرسول الأعظم(ص) أنشدها بماء الدين العاملي (١٠٣٠هـ - ق. / ١٦٢١م) مطلعها:  
و ليلة كان بها طالعي  
في ذروة السعد و أوج الكمال  
(حجازي، ١٩٩٩م، ٣٠٤)

وليست القصيدة قصيدة مدحية بالمعنى الذي نعنيه وإنما هي وصف لليلة يرى فيها الشاعر النبي محمد (ص) في المنام. وإجمالاً، أن المحاولات التي أدت إلى نطاقات ثنائية تبدأ بالمدح قليلة جداً.

## ٢- نطاق أحادي

وفي نهاية المطاف، وصلنا إلى مدائح دينية لها نظام تام. وهذه القصائد ليست غزيرة، ويتراوح طولها بين قصير جداً كقصيدة البهائي (١٠٣٠ هـ / ق. ١٦٢١ م) في مدح الرسول الأعظم (ص) والتي لا تتجاوز خمسة أبيات (حجازي، ص ٢٧٧)، وبين طويل جداً كقصيدة مدحية للحرّ العاملي (١١٠٤ هـ / ق. ١٦٩٣ م) تدور معانيها حول شخصية الإمام علي (ع)، ولها أربعمائة واثنان وخمسون بيتاً، ومطلعها:

كيف تحظى بمجدك الأوصياء؟ وبه قد توسّل الأنبياء

(الأميني النجفي، ١٩٩٧م، ج ١١: ٣٣٢)

## خاتمة

كانت غايتنا الأساسية في هذا البحث الإجابة عن سؤال جوهري هو: ما هي نطاقات المدائح الدينية في إيران الصفوية والأفشارية والزندية؟ فبعد دراسة الموضوع وصلنا إلى نهاية المطاف، لعرض نتائج البحث وآفاقه الجديدة.

## أولاً: نتائج البحث

إن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في هذا المقال هي التالية:

- ١- إن للمدائح الدينية، في هذا العصر، نطاقات قسّمناها حسب مقدماتها كالتالي: نطاقات تبدأ بالنسب، نطاقات تبدأ بمقدمات غير نسبية، نطاقات تبدأ بالمدح مباشرة.
- ٢- إن قسماً كبيراً من المدائح النبوية ذات المقدمة النسبية أنشئت في نطاق يتشكّل من ثلاثة أجزاء، هي: النسب فالمدح فالصلاة والتسليم. هذا وأكثر المدائح التي أنشئت في أهل البيت (ع) لها نطاق ثنائي يتشكّل من جزئين، هما: النسب فالمدح.

- ٣- شاهدنا أنّ الشاعر، في تلك الفترة، يُطيل المقدّمة إظهاراً لتمكّنه الشعري. وقد نواجه مدائح مقدّماتها أطول من عرضها الأساس وهو المديح.
- ٤- رأينا أنّ بعض الأدباء والشعراء اعتبروا بدء المدائح الدينية بالنسيب عيباً. ولذلك لجأ الشعراء إلى مقدّمات غير نسيبيّة كالشكوى.
- ٥- إنّ، في هذا العصر، مدائح دينيّة قليلة تبدأ بالمدح مباشرة.
- ٦- وجدنا، في فترة الدراسة، نطاقاً مبتكراً حديثاً له جزآن: المديح فالوصف.

### ثانياً: آفاق جديدة

إنّ موضوع النطاق موضوع شائع في الدراسات النقدية الحديثة فأوصي الباحثين بالتوجّه إليه ففيه مجال للكتابة. ويمكن أن يقوم باحث بدراسة نطاقات المراثي الدينية في هذا العصر إذ إنّ فيه مادّة تصلح بحثاً علمياً، وهو يكمل بحثنا هذا.

### الهوامش

- ١- علي بن خلف المشعشي من أمراء الخويزة المشعشيين. قال فيه ابن شدقم: "قد خدم بعض الفضلاء الكرام والعلماء العظام، فاقبّس منهم قراءة وسماعاً، فمنهم محمد بن علي الحرفوشي الشامي ببلدة أصفهان في ألقية ابن مالك وشرحها وغيرها في النحو والصرف". (ابن شدقم، تحفة الأزهار، ج٣: ٢٤١)
- ٢- الشقّة: البعد، البيد: ج البيداء: الفلاة، أدمن الأمر: أدامه و واطبه.
- ٣- سفح الجبل: أسفله.
- ٤- نحّ عنها: أبعدھا، الربي: ج الربوة: ما ارتفع من الأرض، حاجر: موضع بالحجاز.
- ٥- العيس: كرام الإبل، أرزمه: جعله يصوّت، الشدقم: اسم فحل من فحول أبل العرب معروف.
- ٦- الرمث: المسح، اللوى: ما التوى من الرمل، الخزامى: نبت طيّب الريح.
- ٧- محمد بن عبدالله المعروف بالطبيب الأصفهاني. قال فيه آغا بزرك الطهراني: "محمد نصير الطبيب الأصفهاني: (١١٩١-...) أو الميرزا نصير الدين محمد بن الميرزا عبدالله، العالم الرياضي، الطبيب الخاصّ لبلاط كريم خان زند (١١٩٣م) بشيراز". (الطهراني، ج٦: ٧٨٠)

- ٨- عمّدي: قصدي.
- ٩- محمد مؤمن بن محمدقاسم الشيرازي المولد والمنشأ، الجزائري الأصل نسبة إلى جزائر حوزستان. توفي عام ١١٠٢ أو ١١١٨ الهجري بالهند. قال فيه شبر: "كان من العلماء العرفاء". (شبر، ج ٥: ١٣٨)
- ١٠- الدنف: الذي اشتد مرضه.
- ١١- قال فيه السماوي: "كان فاضلاً مشاركاً مصنفًا كثير التصنيف، درس بالشام مدة وخاف فخرج منها يترقب إلى أصفهان، ...، الشام، وكان أديباً ملء الفم، شاعراً جيداً للنظم، دقيق الأسلوب". (السماوي، ج ٢: ٢٧٧)
- ١٢- ولد في قرية مشغر من قرى جبل عامل وبقي هناك للتحصيل بما من الأفاضل ثم سافر بعد أربعين سنة إلى العراق في إيران. ثم أقام بمدينة مشهد عام ١٠٧٣ الهجري إذ تجمّع حوله طلبة العلم ينهلون من معين علمه. وأعطى منصب شيخ الإسلام وقاضي القضاة في مشهد.
- ١٣- الغيد: ج الغيداء: المتنتاة في نعومة.
- ١٤- الصبوة (الأول): الميل إلى اللهو، الصبوة (الثاني): سنّ الشباب.
- ١٥- قال فيه محسن الأمين: "كان يدرّس في الروضة الشريفة الحسينية، وكان زوّاراً للأمرء كثير السفارة فيما بينهم، خرج إلى إيران وطاف فيها وأقام مدة، من جماعي الكتب والآثار". (الأمين، ج ١٠: ٢١٤)
- ١٦- ضامك: ظلمك، الحمى: الحمى.

## المصادر والمراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين، (١٩٩٦م). «*لمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*»، تقديم: سمر روجي الفيصل، دمشق: وزارة الثقافة، ط ١،
- ابن حجّة الحموي، أبوبكر بن علي، (١٩٩١م). «*خزانة الأدب وغاية الأرب*»، شرح: عصام شعيتو، بيروت: دار و مكتبة الهلال، ط ١،
- ابن رشيّق القيرواني، الحسن، (١٩٩٦م). «*العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*»، تقديم وشرح وفهرسة: صلاح الدين الهواري وهدى عودة، بيروت: دار و مكتبة الهلال، ط ١
- ابن شدقم، ضامن، (١٣٧٨هـ.ش). «*تحفة الأزهار و زلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار*»، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، طهران: مركز نشر ميراث مكتوب، ط ١.



- ابن الفارض، عمر، (٢٠٠٥م). «الديوان»، شرح: مهدي محمد ناصرالدين، بيروت: دارالكتب العلميّة، ط ٢.
- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله، (١٩٩٦م). «الشعر والشعراء»، تحقيق: محمد شاكر، دار المعارف، ط ٢.
- الأمين، محسن، (١٩٨٦م). «أعيان الشيعة»، تحقيق و إخراج: حسن الأمين، بيروت: دارالتعارف للمطبوعات.
- الأميني النجفي، عبدالحسين، (١٩٩٧م). «الغدير في الكتاب والسنة والأدب»، بيروت: دارالكتاب العربي، ط ٣.
- البوصيري، محمد بن سعيد، (١٩٩٥م). «الديوان»، شرح وتقديم: أحمد حسن بسج، بيروت: دارالكتب العلميّة، ط ١.
- الجزائري، محمد مؤمن، (١٣٩٣هـ.ق). «خزانة الخيال»، تقديم: شهاب الدين المرعشي النجفي، قم: مكتبة بصيرتي (مصورة)، ط ١
- \_\_\_\_\_، «زهرة الحياة الدنيا»، قم: مركز إحياء التراث الإسلامي، الرقم ١٥١٨، ٢٢٧ ص، ١٥×٢٢/٥ سم، ١٨ سطرًا.
- الحائري، نصرالله، (١٩٥٤م). «حسن بن محمد آل هاشم»، تحقيق: عباس الكرمان، النجف الأشرف: ط ١.
- حجازي، حسن عبدالكريم، (١٩٩٩م). «بهاء الدين العاملي شاعرًا»، بيروت: ط ١.
- الزنوزي، محمدحسن، «بحر العلوم»، طهران: مكتبة المجلس، الرقم ٢١٨٦، لا ورقة، لا مقياس، ٤٥ سطرًا.
- السماوي، محمدطاهر، (٢٠٠١م). «الطليعة من شعراء الشيعة»، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار المؤرّخ العربي، ط ١
- شُبر، جواد، (١٤٠٩م). «أدب الطف»، بيروت: دارالمرتضى، ط ١.
- الطهراني، (١٣٧٢هـ.ش). «طبقات أعلام الشيعة»، تحقيق: علي نقى متزوي، جامعة طهران: ط ١.
- المجلسي، محمدباقر، (١٩٨٢م). «بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار»، بيروت: مؤسّسة الوفاء، ط ٢.

- 
- المشعسي، علي بن خَلَف، «الدَّيْرَان»، قم: مركز إحياء التراث الإسلامي، الرقم ٣٦٢٥، ٤١٠ص، ٢٤×١٧سم، ١٧سطراً.
- مولوي، أسد، (٥١٤١٠ق). «مَدِيرِيَّةُ النَّحْرِ الْعَامِلِي (١١٠٤)»، بيروت: تراثنا العدد ٤، الصفحة ٣٦٧-٣٨٨.